الفصل العاشر

أكذوبة العباسة أخت الرشيد مع جعفر البرمكى

وهذا عبد الله الملقب بالسفاح له أمر غريب ، فقد كان سفاحاً مخيفاً فعلاً ، وقد قتل المئات بل الألوف ، ومع ذلك فقد كانت فيه خصال كثيرة طيبة ، وإليك الخبر التالى العجيب الذى آتيك به من كتاب « مروج الذهب » للمسعودى (٢/ ٢١٥ ـ ٢١٨) عن علاقة السفاح بامرأته ، وكانت تسمى أم سلمة : « وكانت قد تزوجت من عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومى فمات ، وتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموى فمات .

فبينا هى ذات يوم إذ مر بها أبو العباس ، وكان جميلاً وسيماً ، فسألت عنه ، وأرسلت إليه مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها ، وقالت لمولاتها : قولى له : هذه سبعمائة دينار أوجه بها إليك . وكانت تمتلك كثيراً من المال والحشم والجواهر ، فأتته المولاة فعرضت عليه ذلك . فقال السفاح : أنا مملق لا مال عندى ، فدفعت إليه المال ، وأقبل إلى أخيها وطلب منه أن

يزوجها منه ، فزوجه إياها ، فأصدقها خمسمائة دينار ، وأهدى من يلوذ بها مائتى دينار . وزُفَّتْ إليه فى ثياب موشاة بالجواهر ، وحظيت عنده حتى صار لا يقطع أمراً إلا بمشورتها حتى أفضت الخلافة إليه .

فلما كان ذات يوم في خلافته خلا به خالد بن صفوان ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنى فكرت فى أمرك وسعة ملكك ، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة ، فإن مرِضَت ، مرضْت ، وإن غابت غبت ، وحرمت نفسك التلذذ باستطراف الجوارى ومعرفة أخبار حالتهن والتمتع بما تشتهى منهن ، فإن منهن ـ يا أمير المؤمنين ـ من مولدات المدينة من تفتن بمحادثتها . وجعل خالد يجيد فى الوصف ويجد فى الإطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه ، فلما فرغ من كلامه قال أبو العباس : ويحك يا خالد ! ماصك مسامعى والله كلام أحسن مما سمعته منك ، فأعد على كلامك فقد وقع منى موقعاً ، فأعاد عليه خالد أحسن مما ابتدأه ، ثم انصرف . وبقى السفاح مفكراً فيما سمع منه ، فدخلت عليه زوجته أم سلمة ، فلما رأته مفكراً مغموماً قالت له : إنى لأنكرك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر تكرهه أو أتاك خبر فارتعت له ؟ قال : لم يكن من ذاك شىء ، قالت : فما قصتك ؟ فجعل ينزوى عنها ، فلم تزل به حتى أخبرها بحديث خالد ، فقالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ قال : سبحان الله ! ينصحنى فتشتمينه ! خرجت من عنده فأرسلت إلى خالد جماعة من المغاربة وأمرتهم ألا

يتركوا منه عضواً صحيحاً . قال خالد : فانصرفت إلى منزلى وأنا على السرور بما رأيت من أمير المؤمنين وإعجابه بما ألقيت إليه ، ولم أشك أن صلته ستأتينى . فلم ألبث حتى صار إلى أولئك البخارية وأنا قاعد على باب دارى ، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوى أيقنت بالجائزة واصلة حتى وقفوا عَلَىَّ فسألوا عنى . فقلت : هانذا خالد ، فسبق إلى واحد منهم بهراوة كانت معه ، فلما أهوى بها علَىّ وَثَبْتُ فدخلت منزلى وأغلقت على الباب واستترت ، ومكثت أياماً على تلك الحال لا أخرج من منزلى ، ووقع فى خلدى أنى أُتيتُ من قِبَل أم سلمة ، وطلبنى السفاح طلباً شديداً ، فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم هجموا علىّ وقالوا : أجب أمير المؤمنين ، فأيقنت بالموت . فركبت وليس علىّ لحم ولا دم . فلما وصلت إلى الدار أومأ إلىّ بالجلوس ، ونظرت فإذا خلف ظهرى باب عليه ستور قد أرخيت وحركة خلفها . فقال يا خالد ، لم أرك منذ ثلاث ، فقلت : كنت عليلاً يا أمير المؤمنين . قال : ويحك ! إنك وصفت لى فى آخر دخلة من أمر النساء والجوارى ما لم يخرق مسامعى كلام أحسن منه فأعِدْه علىّ ! قلت : نعم يا أمير المؤمنين : أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضر ، وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا كان فى جهد ، فقال لى : ويحك لم يكن هذا فى الحديث، فقلت: بلى والله يا أمير المؤمنين ، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأنهن القِدْرُ يَغْلِى عليهن ! قال أبو العباس : بر نت

من قرابتى من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت هذا الكلام منك فى حديثك ! قال : وأخبرتك أن الأربع من النساء شر صحيح لصاحبهن يُشَيِّبْنَه ويُهَرِّمْنَهُ ويُسْقِمْنَه ! قال : ويلك ! ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبلَ هذا الوقت ! » إلى آخر هذه الحكاية ، وهى فى الحقيقة طرفة لطيفة فكهة ، وهى تدل على أن العباس كان له ـ كما قلنا ـ خلقان : خلق عادى إذا كان بعيداً عن السياسة ، فإذا دخل فى السياسة فالويل لعدوه !

ومما يدلك على استهانة ملوك العرب بالدماء هذا الخبر الذى يرويه الطبرى فى كلامه عن أبى جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس (١٣٦ ـ ١٥٨هـ / ٧٥٤ ـ ٧٧٥ م) وذكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن داود بن معاوية بن بكر ـ وكان من الصحابة ـ أن المنصور ضم رجلاً من أهل الكوفة يقال له الفضيل بن عمران ، إلىَ ابنه جعفر ، وجعله كاتبه ، وولاه أمره ، فكان منه بمنزلة أبى عبد الله من المهدى . وقد كان أبو جعفر أراد أن يبايع لجعفر بعد المهدى ، فغضبت أم عبيد الله حاضنة جعفر للفضيل بن عمران ، فسعت به إلى المنصور ، وأومات إلى أنه يعبث بجعفر ، قال : فبعث المنصور الريان مولاه وهارون بن غزوان مولى عثمان بن نهيك إلى الفضيل ليقتلاه وهو مع جعفر بمدينة الموصل ، وقال : إذا رأيتما فضيلاً فاقتلاه حيث لقيتماه ، وكتب لهما كتاباً منشوراً ، وكتب إلى جعفر يعلمه ما أمرهما به ، وقال : لا تدفعا الكتاب إلى جعفر

حتى تفرغا من قتله ، قال : فخرجا حتى قدما إلى جعفر وقعدا على بابه ينتظران الإذن ، فخرج عليهما فضيل فاخذاه وأخرجا كتاب المنصور فلم يعرض لهما أحد فضربا عنقه مكانه ، ولم يعلم جعفر حتى فرغا منه ، وكان الفضيل رجلاً عفيفاً دَيِّناً ، فقيل للمنصور : إن الفضيل كان أبرأ الناس مما رُمى به وقد عجلت عليه ، فوجه رسولاً وجعل له عشرة آلاف درهم إن أدركه قبل أن يقتل ، فقدم الرسول قبل أن يجف دمه ، فذكر معاوية بن سويد مولى جعفر أن جعفراً أرسل إليه فقال : ويلك ! ما يقول أمير المؤمنين فى قتل رجل عفيف دَيِّن مسلم بلا جرم ولا جناية؟! قال سويد : فقلت : هو أميرالمؤمنين يفعل ما يشاء ، وهو أعلم بما يصنع ، فقال : يا ماص بظر أمه ، أكلمك بكلام الخاصة وتكلمنى بكلام العامة ! خذوا برجله فالقوه فى دجلة ، قال : فأخذت ، فقلت : أكلمك فقال : دعوه ، فقلت : أبوك إنما يسأل عن فضيل ، ومتى يسأل عنه وقد قتل عمه عبد الله بن عبد الله بن على ، وقد قتل عبد الله بن الحسن وغيره من أولاد رسول الله ﷺ ظلماً ، وقتل أهل الدنيا ممن لا يحصى ولا يعد ، وهو قبل أن يسأل عن فضيل جزازاته تجب خصى فرعون أى قاتل يقتل الألوف ، قال : فضحك وقال : دعوه إلى لعنة الله » (الطبرى ٨ / ٩٩ ـ ١٠٠) .

فها نحن أولاء أمام خليفة هو أبو جعفر المنصور يقتل رجلاً بريئاً فاضلاً دون جريرة . ويعلق على ذلك رجل مسلم فيقول :

هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء، وهو اعلم بما يصنع ، فهل هذا إسلام ؟ وهل حقًا أن لأمير المؤمنين أن يفعل ما يشاء بأرواح المسلمين ؟ بل إن نفس الخبر يقرر أن المنصور قتل العشرات من أبناء رسول الله ﷺ دون ذنب أو جريرة ، فهل هذا حق ؟ والطبرى الذى يروى هذه الأخبار فقيه ، فتصور أنه لا يعقب على ذلك بكلمة دفاع عن الإسلام !! .

ومن الأخبار التى ينكرها الضمير العربى ولا يصدقها قط قول الطبرى (ج ٨ ص٢٩٤) : وقد حدثنى أحمد بن زهير ـ أحسبه عن عمه باهر بن حرب ـ أن سبب هلاك جعفر والبرامكة أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسة بنت المهدى وكان يحضرهما إذا جلس للشرب ، وذلك بعد أن أعلم جعفراً قلة صبره عنه وعنها ، وقال لجعفر : أزوجكها ليحل لك النظر إليها إذا أحضرتها مجلسى ، وتقدم إليه ألا يمسها ، ولا يكون منه شىء مما يكون للرجل إلى زوجته ، فَزَوَّجها منه على ذلك ، فكان يحضرهما مجلسه إذا جلس للشرب ، ثم يقوم من مجلسه ويخليهما فيثملان من الشراب وهما شابان ، فيقوم إليها جعفر فيجامعها فحملت منه وولدت غلاماً ، فخافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك ، فوجهت بالمولود مع حواضن له من مماليكها إلى مكة ، فلم يزل الأمر مستوراً عن هارون حتى وقع بين عباسة وإحدى جواريها شر ، فأنهت أمرها وأمر الصبى إلى الرشيد ، وأخبرته بمكانه ومع من هو من جواريها وما معه من

الحلى التى كانت زينتـه بها أمه ، فلما حج الرشيد هذه الحجة (سنة ١٨٧هـ) أرسل إلى الموضع الذى قالت الجارية إن الصبى به من يأتيه بالصبى وبمن معه من حواضنه ، فلما أُحْضِرُوا سأل اللواتى معهن عن الصبى ، فأخبرنه بمثل القصة التى أخبرته بها الرافعة على عباسة ، فأراد ـ فيما زعم ـ قتل الصبى، فتحوب من ذلك (أى وجد ذلك حراماً فتوقف) .

وكان جعفر يتخذ للرشيد طعاماً كلما حج بعسفان فيقربه إذا انصرف شاخصاً من مكة إلى العراق ، فلما كان فى هذا العام اتخذ الطعام جعفر كما كان يتخذه ثم استزاره ، فاعتل عليه الرشيد ولم يحضر طعامه ، ولم يزل جعفر معه حتى نزل منزله من الأنبار ، فكان من أمره وأمر أبيه ما أنا ذاكره إن شاء الله تعالى (الطبرى ٨ / ٢٩٤) .

فأنت تقرأ هنا خبراً مهيناً حقّاً للمسلمين ، وأنت إذا تأملته وجدته لا يستقيم ، فما الذى يجعل الرشيد يتمسك بأن يحضر جعفر مجلسه مع أخته العباسة ؟ وإذا كان لا يريد أن تكون هناك علاقة بين الاثنين فلماذا عقد بينهما الزواج أصلاً ؟ ثم كيف يتركهما معاً وينصرف فيعرضهما إلى مظنة الجماع ، وهو أمر معقول بين رجل وامرأة عقد له عليها فعلاً ؟ الحقيقة هى أن الخبر غير أصيل بل غير ممكن ، وإذا كان الرشيد قد غضب على جعفر وآله فلابد أن تكون هناك أسباب أخرى أهم من تلك العلاقة غير المعقولة بين جعفر والعباسة .

وقد أنكر ابن خلدون هذا الخبر فى مقدمته (طبعة د . عبد الواحد وافى جـ ١ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١) فقال : وهيهات ذلك من منصب العباسة فى دينها وأبويها وجلالها ! وإنها ابنة عبد الله ابن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الملة من بعده ، والعباسة بنت محمد المهدى بن عبد الله أبى جعفر المنصور بن محمد السجاد بن على أبى الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبى ﷺ ، فهى ابنة خليفة ، وأخت خليفة ، ومحفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإمامة الملة ونور الوحى ومهبط الملائكة من سائر جهاته ، وهى قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش ، فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها ؟ وأين توجد الطهارة والزكاء ـ بالزاى بمعنى الصلاة والاستقامة ـ إذا فقد من بيتها ؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم بملكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشراف قريش وغايتهم إن أرادت أن ترتفع بمكانهم مكافأة على ما كان منه ومن أبيه أن ترقيهم إلى منازل الأشراف ؟ وكيف يجوز للرشيد أن يصهر إلى موالى الأعاجم على همته وعظم إبائه ، ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها من مثله مع مولى من موالى دولها وفى سلطان قومها

واستنكره ولجَّ فى تكذيبه ، وأين قدر العباسة والرشيد من الناس؟ وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره ، وشاركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وسيف وقلم ، ويقال : إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ، ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هرون ولى عهد وخليفة ، حتى شب فى حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعوه يا أبت ، فتوجه الإيثار من السلطان إليهم ، وعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال ، وتخطت إليهم من أقصى التخوم ، وأفاضوا فى رجال الشيعة وعظماء القرابة بالعطاء ، وطوقوهم المنن ، وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم ، وفكوا العانى ، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسدوا لعفاتهم (طلاب المعروف) الجوائز والصلات ، واستولوا على القرى والضياع من الضواحى والأمصار فى سائر الممالك حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة ، وأغصوا أهل الولاية ، فكشفت لهم

وجوه المنافسة والحسد ، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية ، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم ، لم يعطفهم ـ لما وقر فى نفوسهم من الحسد ـ عواطف الرحم ولا وزعتهم عواطف الرحم .

وقارن ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف من المجد والأنفة ، وكامن الحقود التى بثتها منهم صغائر الدالة .

وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة .. كقصتهم فى يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب أخى محمد المهدى الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور . ويحيى هذا هو الذى استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخطه . وبذل لهم فيه ألف ألف درهم ـ على ما ذكره الطبرى ـ ودفعه الرشيد إلى جعفر وجعل اعتقاله بداره وإلى نظره ، فحبسه مدة ، ثم حملته الدالة على تخلية سبيله والاستبداد بحل عقاله حرمة لدماء أهل البيت بزعمه ، ودالة على السلطان فى حكمه . وسأله الرشيد عنه لما وشى به إليه ، ففطن وقال : أطلقته ، فأبدى له وجه الاستحسان وأسرها فى نفسه . فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثل عرشهم ، وأكفيت عليهم سماؤهم ، وخسفت الأرض بهم وبدارهم ، وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين أيامهم . ومن تأمل أخبارهم ، واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الأثر ممهد الأسباب .

وابن خلدون على حق فى كل ما قال ، فإنه يستبعد قطعاً أن يكون الرشيد قد أطلق العنان لأخته لتجلس إليه مع جعفر، وحلل ذلك بعقد الزواج بين الاثنين ، واشترط عدم الخلوة ، فهذا كله كلام شعبى يقال فى الأسواق ، وما كان ينبغى قط للطبرى أن يرويه على هذه الصورة ؛ ففيه ـ كما ترى ـ مهانة بليغة لامرأة جليلة من آل البيت .

ولكننا نسأل : وكيف كان الرشيد يبيح لنفسه الحرية فى أن يعطى وزراءه من البرامكة هذا السلطان كله لو كان هناك قانون أساسى أو دستور يحدد حقوقه وحرياته ؟ وهل يجوز اليوم أن يرتكب رئيس دولة هذه الأخطاء وهناك دستور يحدد كل شىء ؟ والغريب مع ذلك أن الرشيد بعد أن ارتكب هذه الجناية الفظيعة ـ جناية قتل جعفر والقضاء على البرامكة وأولادهم ومصادرة أموالهم دون تحقيق ـ الغريب أنه بعد أن فعل ذلك لم تتحسن الأحوال المالية فى الدولة ، وإذا كان الرشيد قبل نكبة البرامكة يطلب المال القليل فلا يصل إليه فإنه بعد ذلك كان يطلب أقل من القليل فلا يجده . والسبب فى ذلك هو أن البرامكة ـ برغم كل ما كان يقال عنهم ـ كانوا رجال مال ممتازين ، وإذا كانوا قد تصرفوا بتدلل مع الرشيد فإنهم كانوا ـ من الناحية المالية ـ فى غاية المهارة ، والدولة العباسية كانت تعانى منذ قيامها أزمة مالية لم ينقذها منها إلا البرامكة ، فلما ذهب البرامكة ظهر الإفلاس المطلق .

ومما يؤكد ما قلناه من أن هذه حكايات أسواق اندست فى كتب التاريخ هذا الخبر الذى يرويه أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة فى كتاب « الإمامة والسياسة » ونحن نعرف أن هذا الكتاب مشكوك فى مادته ؛ فقد أدخل الرواة فيه أخباراً غريبة وأجزاء من كتب أخرى ، ولكن الخبر التالى فى ظاهره الأصالة ، أى أننا نرى أن ابن قتيبة رواه فعلاً فى كتابه قال : قال سهل (بن هارون) : قلت لبعض من أثق بوفائه ، وأعتقد صدق إخائه من خصيان القصر المتقدمين عند أمير المؤمنين (الرشيد) المتمكنين من كل ما يكون لديه : ما الذى نعى جعفر البرمكى وذويه عند أمير المؤمنين ؟ وما كان من ذنبه الذى لم يسعه عفوه ولم يأت عليه رضاه ؟ فقال : لم يكن له جرم ولا لديه ذنب ، كان والله جعفر على ما عرفته عليه وفهمته عنه من اكتمال خصال الخير ونزاهة النفس من كل مكروه ومحذور ، إلا أن القضاء السابق والقدر النافذ لابد منه ، كان من أكرم الخلق على أمير المؤمنين ، وأقربهم منه . وكان أعظمهم قدراً وأوجبهم حقّاً . فلما علم ذلك من حسن رأى أمير المؤمنين فيه وشديد محبته له استأذنته أخته ، وهى بنت المهدى ، وشقيقته فى إتحاف جعفر ومهاداته ، فأذن لها ، وكانت قد استعدت له بالجوارى الرائعات والقينات الفاتنات ، فتبعث له كل جمعة بكراً يفضها ، إلى ما يصنع له من الوان الطعام والشراب والفاكهة وأنواع الكسوة والطيب . كل ذلك بمعرفة أمير المؤمنين

ورأيه ، فاستمرت بذلك زماناً ومضت به أعواماً ، فلما كانت جمعة من الجمع دخلها جعفر القصر الذى استعدت به ، ولم يرع جعفر إلا بفاختة ابنة المهدى فى القصر كانها جارية من الجوارى اللاتى كن يهدين إليه ، فاصاب منها لذته وقضى حاجته .

★★★